

# شوقي خاتم القدماء وطلبة المحدثين

بقلم رفيف حوريب

١ - عصر يهيء لنهضة

ثم لم يستطع ان يرجع إلى سابق عهده بالنوم والغفيط، ودخلت على حياته من مستحدثات العصر الآلة الطابعة والصحيفة السيارة. ثم انبعثت تلك النهضة التي قرنت باسم محمد علي. وهي من اقوى النهضات التي قامت حديثاً في الشرق العربي وأعمقها أثراً. فلقد أوشكت ان تدفع بالحياة من نواحيها السياسية والاجتماعية والاقتصادية في طريق انقلاب جذري. ولقد حاول فيها محمد علي ان يضع دعائم اقتصادية لحركته بتشبيده المصانع، وبتبني العلم الحديث، وشجع عليه بارسال البعثوث إلى اوربا واستقدام العلماء الاوربيين الاكفاء، وإنشاء المدارس والمطابع التي أحييت كثيراً من كنوز التراث العربي الثقافي، ومكّنه من تلقيح حاضر الادب العربي المنحط بماضيه المزهو. ودرّب جيشاً قوياً نهض بالأعمال العسكرية العجيبة. وإلى هذه النهضة استطاع رد بذور الشعور القومي العربي الحديث. ومن يكن على شك في رحابة تلك الارحاء وجدّة تلك الآفاق التي فتحتها هذه النهضة للعقل العربي، فليقرأ كتاب رفاة رافع الطهطاوي « الدر النفيس » والطهطاوي هذا كان عضواً في إحدى البعثات التي أوفدها محمد علي إلى فرنسا، وكتابه ذاك مرآة عقل تحرّكه حضارة جديدة بتصرفها ويقارن ما بينها وبين الحضارة التي عرفها وورثها.

غير ان قوى الاستعمار، وفي مقدمتها البريطانية، لم تكن لترضى عن هذه النهضة. ولشد ما حاولت ان تدس في عجلتها العصي. ثم لم تزل هذه القوى الأثيمة ناشطة بعد وفاة محمد علي في سبيل غاياتها حتى منعت تلك النهضة من ان تؤتي ثمرها المرجى في الحقل الاقتصادي على الأخص، حتى لنراها فيما بعد ١ تعمد في أحيان الى تخريب المصانع تخريباً مباشراً.

في عهد إسماعيل، العهد الذي ولد فيه شوقي، تمكّن الأخطبوط الاستعماري من ان يعمق محالبه المنشبة في جسم البلاد. ذلك ان إسماعيل وإن ظهر رجل إصلاح ونيات حسنة

(١) المراد بعد الاستيلاء على مصر.

خاتم القدماء وطلبة المحدثين، ذلك دور عظيم نسندة إلى الشاعر العظيم الذي غاب عنا منذ احدى وعشرين سنة، ولكنه على كل حال أليق به من لقب امير الشعراء، لأن الشعراء إن كان لهم من شيء فلان يكون إلمارة! وفي سبيل ان ندرك كيف كان شوقي خاتماً للقدماء وطلبة للمحدثين، فلا بد لنا من ان نتلمح قسماً العصر الذي قدر للشاعر ان ينشأ في صعيده. إن ثلاثاً وستين سنة عاشها شوقي، بين ١٨٦٩ و ١٩٣٢، ليست بالجديرة أن تعد حياة طويلة، إن كان لطول الحياة يد فيما يبلغ اليه الشعراء والكتاب من مبالغ الابداع. ولكن موقع هذه السنين الثلاث والستين في موكب التاريخ قد كان مهماً حقاً. فهي قد ربطت بين قرنين من الزمان: التاسع عشر، والعشرين؛ وهي على علاقتها في مقدمة عصور الانسانية خصباً وغناء، وهي كذلك من عصور العرب التي عادوا فيها يتغلبون على الجذب ويقهرون العقم. فيما بين هذين القرنين تنبه الشرق العربي بعد ما انسحبت عليه الحقب الطوال مستغرقاً في خمود بل خمود في نواحي الحياة كلها سياسية واجتماعية واقتصادية وأدبية. كانت البلاد العربية كلها منوثة تحت سلطان الاتراك العثمانيين في نظام قاعدته الاقطاع. وكانت الامبراطورية العثمانية في تقهقر مطرد نتيجة للاوضاع الاقطاعية التي باتت أسد فساداً وتهرؤاً من أن تستجيب لمطلب ما من مطالب الزمن، ونتيجة للاطماع الاجنبية، على ألوانها وأشكال تدخلها سافرة ومقتّعة.

لكن هنا لا بد من التنويه بمجاذقة، من كبار الحوادث قدّر لها ان تكون بمثابة المغزة التي قطعت على الشرق العربي استرساله فيما كان فيه من خمود وخمود. تلك حملة بونايرت على مصر في خاتمة القرن التاسع عشر. فتتململ الشرق العربي يومئذ - بعضه إن لم يكن كله - على زفير مدافع بونايرت والانكليز،

وافتتان بالعلم والأدب والفن ؛ ان اسماعيل ، وان نشطت في أيامه الصحافة نشاطاً فعلاً وهبط مصر رهط من رجال الفكر اسهموا في الحركة الأدبية والتمثيل ، اسماعيل هذا كان مسرفاً على نفسه وعلى الأمة ، سيء التقدير لطافته وللمطامع المحيطة به ، فتورط في أمور أقرب الى الجاه الفارغ عادت ويلاً على مالية الدولة التي هي عصب الدولة ، وفتحت باب التدخل الاجنبي على مصراعيه .

ثم كان عهد توفيق باشا ، وفي البلاد خمير فكري مبثوث نشره رجال كالسيد جمال الدين الافغاني ، وغيره ممن تلمذوا له من أرباب القلم كأديب إسحاق وعبدالرحمن الكواكبي والشيخ محمد عبده . وكان الناس أشد ما يكونون قلقاً على مصير البلاد من عواقب سياسة إسماعيل . فأملوا خيراً من الحدوي الشاب ، ولكن توفيقاً أسرع الى تضيق مجال القول على الناس والاخذ بخناق الحرية ، فسن للمطبوعات في سنة ١٨٨١ قانوناً مغرقاً في الرجعية . فزاد ذلك بلة في الحالة القلقة التي كانت تعانيها البلاد ، فنشبت ثورة عرابي وإذا بالامور تدور مداراً ينتهي بان تفلح القوي الاستعمارية في الاستيلاء العسكري على مصر سنة ١٨٨٢ . لقد ضرب الاسطول البريطاني مدينة الاسكندرية بقذائفه ، وساعدت الحياطة الجنود البريطانيين على أن يهزموا الجيش المصري في التل الكبير . وشوقي يومذاك صبي أو كالصبي يغدو ويروح الى مكتب ( مدرسة ) يدعى مكتب الشيخ الصالح . أفكان يفقه شيئاً من تلك الاحداث التي ستقرر مصير بلاده الى دهر طويل ؟

وها هنا يهنا ان نتريث قليلاً لنعرض مذاهب في التفكير أحدثتها أو قلبتها ظروف تلك الحقبة العصبية . فهذه المذاهب في التفكير قد تركزت أصداء جاهرة رنانة أو خافتة مهموسة في نبرات شوقي الشعرية .

كان فريق من المفكرين ، في طليعته السيد جمال الدين الافغاني ، يرمي الى جامعة إسلامية تتخذ شكل حكم شورى دستوري ، وتتنظم حول « الدولة العلية » . وتلك حركة باساس من الشعور الديني ، دفع اليها حب الصمود السياسي في وجه القوي الاستعمارية التي اصطبغت اعمالها التوسعية بلون اعتداء ديني ، في نظر الذين لم يتعمقوا الى دوافعها الاخرى ولا سيما الاقتصادية .

وبرز شعور يريد ان يمحيط برقعة أوسع من رقعة البلدان

الاسلامية ، ذلك هو الاحساس بنوع من وحدة شرقية عامة تقوم في وجه القوي الاستعمارية المتوسعة . ولقد ترك ذلك الاحساس صدها في قصائد موفورية اشادت بانتصار اليابان على الروس في سنة ١٩٠٥ م . لا لسبب إلا لأن اليابان دولة شرقية ونهوضها بشير بنهضة الشرق .

واشدت على الايام المجاذبات الحزبية حول الجلاء والاحتلال وما يتصل بهاتين القضيتين . وانطلقت في عهد الحدوي عباس حركة مصطفى كامل تطالب بالجلاء فكانت صدى كبيت نفسي حادة عنيف .

وكان رجال القلم ما لبثوا ان تنبّهوا الى ان المشكلة السياسية لا تعالج على انقطاع ، وإنما هي 'ملاحمة' بمشاكل قومية اخرى لا بد من علاجها إذا اريد ان يكون العلاج ناجعاً أو مجدياً على الأقل . فظهر من جالوا في ميدان الاجتماع جولات يتفاوت حظها من عمق ، إلا انها اقتضت بوجه عام على امور هي نتائج أكثر منها عوامل اجتماعية كقضية السفور والزواج غير المتكافئ ، والتعصب الطائفي . وقليلاً ما مست هذه الجولات الاجتماعية ، اول الأمر ، بالآفات الرخيصة التي يجرها على البلاد الفقر واحتكار الثروات في ايدي طبقة اقلية . وبدأ رجال النلم يتصاولون كذلك في ميدان النقد الادبي ، ويتقسمون بالطبع قسمين ، فمنهم من يرى المثل الادبي الاعلى في القديم ولا سيما ما عرفوه من موروثات قديم أقرب الى زمنهم كمقامات الحريري واشعار صفي الدين الحلي . ومنهم من يضيق صدره بهذا القديم ويعده ادب الخطاط لشدة ما يتقله ويهبطه من اعباء السجع ومكلفات البديع ، فيجب إذا التحرر منه ، وإذا كان لا بد من الاتصال بالقديم فليكن اتصالاً بادب عصور الازدهار العباسي لا عصور الانحطاط ، لكن على كل حال يجب النظر قبل كل شيء في حاجة العصر وإنشاء ادب تنطلق سفينته من ظلمات القديم الى خوض عباب الموضوعات العصرية الملحة من حول الناس ، وذلك بأسلوب وعبرة أقرب الى الطبع السمع والسهولة ، أدب لا يبقى دائراً في مدار من الفنون التقليدية بل يدخل على نفسه فنوناً جديدة كالتي عرفها ادب الغرب ولم يتح للادب العربي ان يعرفها وأخصها الرواية التمثيلية .

ووقع الانقلاب العثماني فسقط السلطان عبد الحميد سنة ١٩٠٨ ، واعلن الدستور فكان لذلك دوي عظيم في الشرق

# مقدم الحمر

[ اهداء تقديس الى رفات امي في  
نكروبوليس ... ]

أفسحوا الدرب . انه جاء خجلان رقيق الخطى كئيب الجبين  
الغلام الحساس ذو العين للفرقى بتاريخ ألف سرّ حزين  
انه مُطعم العيون العميقات وينبوع كل دمع سخين  
ولقد جاءنا تبلل عينيه الدموع الخرساء عبر السنين

انه حزننا الصبي لقيناه على غير موعد وانتظار  
لم يزل هادئاً خجولاً كما كان وما زال غامق الاسرار  
جاءنا دافئاً أرقّ من الدمع وأحلى من رعشة الاوتار  
ففرشنا له طريقاً من الالهفة والحب والدموع الغزار

واخذناه في حشوع الى اعماق أفراننا وقعر رؤانا  
ومنحناه كل ما جمع الحب من اللون والشذى لصبانا  
ورصفنا له هوانا وما أبقي لنا الموت والاسى من منانا  
وغسلنا جبينه بدموع صامتات عطشى تذوب حنانا

انه خيطنا الاخير الى السروة فيه من أمسنا ألف شيء  
لم يزل هامساً لنا «انها ماتت...» على مسمع الشذى والضوء  
ان فيه من وجهها وأمانها وأشواقها بقية دفة  
وهو إحساسنا يعود الينا مرعشاً من كياننا كل جزء

انه كل ما تبقى لنا من وجه ضحكاتنا ورجع الآغاني  
ان فيه نهاية الطرف الثاني لماهدم الردى من امانى  
فوهبنا له صلاة من الادمع حجلي مهموسة الالحان  
ومنحناه مسكناً في ما قينا وحباً أقوى من النسيان

بغداد نازك الملائكة

التحرر المطلق .

ولكن برغم ذلك استمر تطور الشرق العربي في نواحي  
الحياة كلها ، بعد الحرب العظمى الاولى . وطرحت بشكل  
اشدّ واعنف مسألة استقلال الاوطان العربية وتحررها من نير  
الأستعمار الأوروبي ، كما تحررت من نير الاستعمار التركي .  
ولئن كنا لا نستطيع هنا ان نحيط بالحركات والثورات ،  
والتيارات الفكرية ، التي غلبها وجاش الشرق العربي في حقبة  
ما بعد الحرب العظمى الاولى ، وزرع الشهداء من شواطيء  
الاطلسي الى وادي النيل وجبال نابلس وشوارع بيروت  
وسفوح قاسيون وضفاف دجلة ، فان علينا ان تكون لنا  
صورة واضحة من ذلك كله اذا اردنا ان نفهم شوقي ونضعه في  
موضعه الحق من التاريخ، ونعرف لم استطاع في تاريخ الأدب  
العربي ان يكون هو خاتمة القدماء وطلبة المحدثين . واقول :  
« لم استطاع » توكيداً للعنصر الشخصي في تمكن شوقي ان يبلغ  
ما بلغ اليه من تبوّؤ مركز الخاتم للقدماء والطلبة للمحدثين .  
فالذي يجيل لي ان التعليل باحوال العصر لا ظاهرة فريدة في  
التاريخ يقال لها شوقي او المتنبي هو تعليل قاصر فاشل . فلو لم  
يكن ثمة العنصر الشخصي ، لو لم تكن ثمة العبقرية ، لوجب اذاً  
ان يكون المتنبي كلُّ من عاش في عصر المتنبي ، وشوقي كل من  
عاش في عصر شوقي ، وليس ذلك هو الواقع . وسنرى .

رئيف-خوري

العربي . وامتلات النفوس تفاقلاً بعهد جديد من الاصلاح  
والقوة ، على ان هذا التفاؤل المشرق ما لبث ان أظلمته سحابة  
قائمة ، فالاصلاح المرجو لم يتم ، والقوة لم ترد ذرة في  
الامبراطورية العثمانية ، بدليل ما انتهت اليه الحرب البلقانية  
سنة ١٩١٢ .

وفي تعليل قصور الانقلاب العثماني عن تحقيق الغايات  
الاصلاحية المنشودة ، قال الدكتور شبلي الشميل : كان ذلك  
« لعدم اشتراك الامة فيها اشتراكاً محسوساً بسوى الاكثار  
من التغني في اول الأمر ، وهي اليوم تكثرت من العويل ولا  
تعداه الى عمل حازم وتحرسها اقل كمامة . فتورطنا حتى الان  
عسكرية ، اقتصر التغيير فيها على صورة الهيئة الحاكمة ، فلم  
تغيّر شيئاً من اخلاقنا ولم تتصل الى علومنا وصناعاتنا وتجارتنا»  
ثم زارت مدافع الحرب العظمى الاولى سنة ١٩١٤ فهزت  
الدنيا هزاً عنيفاً ومنها مصر والشرق العربي كله . فصل الخديوي  
عباس عن عرشه ونقي من مصر لأنه كان متهماً بالميل الى  
الأتراك ، وتجلي الضعف المستور بواجهة مطلية في كيان  
الامبراطورية العثمانية ، وعصف بها ما فيها من تناقضات  
فتمزقت . واثبتت القومية العربية انها ذات فعالية قوية ، وان  
تكن عارضتها اسباب وشوائب من بطش وتآمر من قبل الخارج  
الاستعماري ، وجهل وخيانة من قبل الداخل . اسباب وشوائب  
انخرقت بها عن قصدتها الذي لا يمكن ان تقصد الى سواه وهو